البيداغوجي / العدد 1، أكتوبر 2014
LE PÉDAGOGUE / Numéro 1, Octobre 2014

تدريس الفلسفة للأطفال
أم «التفلسف معهم وإياهم»؟

محمد بلال أشمل
أستاذ الفلسفة
ثانوية القاضي ابن العربي التأهيلية - تطوان

ملخص: يرى هذا العرض أن التفلسف مع الأطفال أولى من تعليمهم الفلسفة. ولعل الأمر الأساسي الذي يسعى إلى التنبيه عليه هو ضرورة الحوار واللعب معهم؛ فلعل ذلك يمكن أن يكون طريقة معقولة وممكنة في التفلسف معهم وإياهم.

Résumé: L'argument central de cet article est d'attirer l'attention sur la nécessité de jouer et de dialoguer avec les enfants plutôt que de les enseigner la philosophie. Le jeu et le dialogue seraient, donc, une façon raisonnable de philosopher avec les enfants.

1

ومع ما أحسنت الجمعية فيه،(*) حين دعت إلى ندوة «الطفل والفلسفة»، أستميحها عذرا إن أنا أبديت تبرُّمي من أمر واحد أحب أن يكون المدخل لعرض نظري في موضوع ما تنادت إليه: وهو ما سمّته «رهانات تدريس الفلسفة للصغار»، وما أحب تسميته بكل إخلاص: «قضية تدريس الفلسفة للصغار»؛ فالرهان إما خاسر أو رابح، وميدان الطفولة ليس منذورا للربح أو للخسارة؛ إذ مَن يَقبَل أن «يقامر» بمستقبل أطفاله ووطنه؟ وأفضل منه «القضية»، لأنها تنطوي على معنى العمل المتواصل في الزمان والمكان، والجهد المبذول بأخلاق التضحية والإيثار، والتفكير في المصير المسنود بالتدبير الرشيد للواقع. الطفل لا «يلعب» كما ينبغي، لأن الساحة مسيّجة، واللعبة غالية الثمن، والوالدان قلقان على تدبير المنزل، فكيف «نلعب» بمستقبله ومصيره حين نتنادى بالرهان على تدريس الفلسفة له؟ هو شأنُنا إذا «لعبنا» بواقعنا وبمصيرنا. ألسنا أحرارا ندعو إلى «حقوق الإنسان» في اللعب؟ ولكن ليس من حقنا أن «نلعب» فنقامر، ثم نراهن على مصير أطفالنا ولو اصطنعنا وسيلة نبيلة مثل التدريس، لتحقيق غاية أنبل مثل التأسيس لمستقبل أطفالنا، ومصير وطننا. أليس يكون أشرف لنا وأفضل أن نفكر بمنطق «القضية»، عوض التفكير بمنطق «الرهان»؟ ماذا لو خسرنا؟ أقَدَرُنا دائما أن نخسر قضايانا المصيرية: خسرنا «رهان الإنسان»، حين انتصرت علينا سلطة «الأشياء»، وخسرنا «رهان الوطن»، حين صرَعَنا بأس القبيلة، وخسرنا «رهان العمران» حين استبد التبدد بمجالنا البصري والقيمي. موضوع الطفل ليس منذورا للرهان، ولا للمقامرة، ولا للخسارة، بل منذور للقضية: أن نعد شأنه قضية صادقة — بأي معيار شئنا– وقضية عادلة — بأي مقياس أحببنا– وقضية للجهد المبذول، لا للتمني المرذول.

موضوع الطفل ليس منذورا للرهان، ولا للمقامرة، ولا للخسارة، بل منذور للقضية

2

اسمحوا لي أولا أن أستصعب معكم قضية «تدريس الفلسفة للأطفال»؛ ليس لأني ما زلت أومن بأن الدرس الفلسفي، هو بوجه من الوجوه، درس للمعارف كما المواقف، مداره على المفاهيم، كما الخيال، والفرح، والدهشة، وسائر الذخيرة الحية من الإنسان، والطفل أبكر من أن يدركها في تداولها العام، وألين من أن يتعقلها في صورتها ووضعها القائم، ولكن لأني من شدة ما وقفت على صعوبة تدريس الفلسفة للكبار، وجدتني كثير الشك، قليل اليقين في يسر هذه الرسالة، وعسر وظيفتها. ويجوز أن بضاعتي في التدريس بائرة، وآلتي في التعليم عاطلة، ولكنها شهادة من لست أقدر على جرح عدالتهم من شهدوا أنها كذلك، صعبة من حيث المجال، وصعبة من حيث التلقي، وصعبة من حيث أن بناءها تهدمه معاول أخرى داخل حرم العلم، أو في حواري المدينة، أو في الثقافة العامة، فعضّدوا بذلك رأيي. ثم ألم نشهد من شنّع على الفلسفة آلتها في البحث والنظر، وطعن في العقيدة الدينية والوطنية لأهلها، ثم صاروا يجترئون عليها بالخاص والعام، وأحبوا حشرها الآن في حرب عبثية مع خصوم وهميين، ثم نقوم نحن بتدريسها للأطفال؟ أليس نقيم على أنفسنا الحجة مرتين: مرة حين درّسناها للكبار، فاتُّهِمنا أنّا ندرس لهم ما كان ضرره عظيما على بعض قيمنا، ومرة حين درّسناها للصغار، فاتهمنا أنّا نهدد «أمنهم» الفكري.

3

بيد أن من فكر في وصل الطفل بالفلسفة، فكر بمنطق منحاز إلى المستقبل، وهكذا ينبغي أن يكون الأمر حقا. ولكن دعونا نفكر في الحاضر أيضا، ودعونا نفكر بالمشخص أيضا، حتى لا نعيّر بالاجتراء على الكلي، والتخاذل أمام الجزئي. من هو هذا الطفل الذي يراد لنا أن ندرّس له الفلسفة؟ أهو «**مينون**» السقراطي

(*) قطعة من هذا النص هي ثمرة مشاركتي في الملتقى الوطني الرابع الذي نظمته جمعية **الشعلة للتربية و الثقافة-فرع تطوان** في موضوع «الطفل والفلسفة» ضمن محور «رهانات تدريس الفلسفة للأطفال» طيلة أيام *15-16-17* مارس *2013* في قاعة العروض بالقاضي عياض بتطاون.

أم «**مينون المغربي**»؟ إذا كان المقصود بالطفل هذا الطفل العام، فالمعذرة؛ لأن لا ماضينا ولا حاضرنا ولا بالقطع مستقبلنا، يتساوى بماضي طفل سويسري، ولا بماضي طفل إسباني، ولا بالتأكيد مستقبل طفل مصري. ولذلك من العبث تطارح أمر تدريس الفلسفة للطفل بهذا المعنى الكلي والمجرد. أما إذا كان المقصود بالطفل، هذا الطفل الخاص، فمرحبا، لأنا نعلم أنه لن يخرج عن ثلاثة معان على الأقل تنطوي كلها على حظنا من المعرفة النظرية حول الطفل في شعاب علمية محددة، من التربية والسياسة فالاجتماع ثم السيكولوجيا: معنى خاص هو «الطفل المغربي»، ومعنى أكثر خصوصية هو «طفل مدينتنا»، ومعنى بعيد الخصوصية هو طفلنا الرحميّ. ولأنّا ما زلنا لم نستشكل بعد «الإنسان المغربي»، ومعه «كبار المغاربة»، يبدو من الصعب الحديث عن «الطفل المغربي»، ومعه «صغار المغاربة»، في غياب قاسم مشترك يمكن أن نطمئن إليه في صياغة الملامح التقريبية للطفل المغربي، لأسباب عدة نجتزئ منها بغياب المدرسة العمومية الموحدة التي تعمل على صياغة الوجدان المغربي في سيرورته الطفولية، والانفجار الإعلامي الذي صار بمثابة مدرس خصوصي للأطفال بدون أجر سوى ضريبة المواطنة، وغياب النموذج الأخلاقي الداخلي للطفل الذي لم يعد هو «الأب» ولا «الأم»، وإنما هو نموذج أخلاقي خارجي استقي من نجوم «البَرصة» و«المدريد»، أو من كواكب الرسوم المتحركة باتجاه العنف أو باتجاه الميوعة، أو من عالم الفن الذي ثوّر مفهوم الجمال حتى فقد أثره. لا يعوّل على «الطفل المغربي» عند الحديث عن «تدريس الفلسفة للأطفال»، لأنه بالإضافة إلى ما قلنا، يقتسم التوتر الإشكالي مع «الرجل المغربي» و«الإنسان المغربي»...

أما «طفل مدينتنا»، فالحديث عنه بهذا المعنى غير مستساغ أيضا؛ إذ لم نحسم بعد في انتمائنا إلى المدينة، وما زلنا مترددين بين الانتماء إلى الحزب أو الطائفة أو القبيلة أو العرق... مع أن الفلسفة التي يراد لنا تدريسها للأطفال، فلسفة صريحة الانتماء إلى المدينة، شريفة النسب في التمدن. «طفل مدينتنا» هو بالمجاز الطفل من معارفنا، والطفل من أقربائنا، والطفل من جيراننا... ولكنا لا نعرفه تلك المعرفة التي يطمع معها في نيل اليقين، فكيف بنا نطمح إلى تدريسه الفلسفة إذن! وكلها أو قل آلتها ليست إلا الريبيّ والنسبي؟

بقي «طفلنا الرحميّ»: طفلنا هذا نحبه الحب العظيم، ولذلك لا يمكننا وضعه موضع المعرفة العلمية؛ إذ أعمق صلة تجمعنا به هي صلة المحبة لا صلة المعرفة، وشتان بين صلة المحبة وصلة المعرفة: صلة المحبة تعمي الأبصار فلا تطلع على عيوب الظاهر، وصلة المعرفة تعمي البصائر، فلا تطلع على غيوب الباطن. محبتنا لطفلنا الرحمي تشوش علينا معرفتنا به المعرفة العارية عن أية عاطفة أو شعور، وأبوتنا له تعتم علينا كل رؤية له واضحة مسنودة بالوعي الصحيح لقدراته وعجزه، فهل نقتدر على تدريس الفلسفة لمن نحب؟ هذا سؤال نرجئ الإجابة عليه حالما نستكمل عناصر استشكالنا لـ«تدريس الفلسفة للأطفال».

4

ما العمل إذا كان استصعاب هذا الأمر مشتركا بين أغلب النظار من الناس؟ العمل عندنا أننا لما نمضي إلى تدريس الفلسفة، نصطنع في تدريسها قدرا معينا من المفاهيم المجردة، ونحشد لها طرائق في الحجاج بقدر وضوحها، لا تنفك أن تكون ذات حظ جليل أو قليل من التعقيد. وقد دلت التجربة أن الكبار يحصل لهم قدر من التشويش والارتباك حين تحصيل العلم بالفلسفة، سواء من باب المفاهيم، أو من باب التصورات، دون ذكر اللغة التي هي جسد الأفكار بمعنى من المعاني، حين تكون عبارتها قلقة، فيتعسر اقتناص معناها، فما القول إذن في الصغار ولم تتهيأ لهم بعد أسباب التحصيل من هذا الوجه؟ ما زال النظر جاريا في طرائق تدريس الفلسفة للكبار، وأيها أسلم، وأيها أنجع، وأيها أكثر توفيقا؟ فهل نستعد لوضع «ديداكتيكا» خاصة بالأطفال فيما يتصل بتعليمهم الفلسفة، أي جملة من القواعد والخطوات التي إن اتبعناها تحصل لدينا

من فكر في وصل الطفل بالفلسفة، فكر بمنطق منحاز إلى المستقبل

غاية ما نتمناه من تدريس الفلسفة للأطفال؟

5

إذا صار من المقبول التسليم باستصعاب «تدريس الفلسفة للأطفال»، فلننظر فيم لو اخترنا التفلسف معهم وإياهم، ومن ثم، الحديث عن «التفلسف مع الأطفال وإياهم» عوض الحديث عن «تدريس الفلسفة للأطفال»؛ أي الدعوة إلى ممارسة الفلسفة، لا السعي إلى تعلمها، أو قل، إن سبيل تعلم الفلسفة، التفلسف. في اعتقادنا الشخصي، إذا صح أن هناك مشاقّا تنطوي عليها عملية تدريس الفلسفة للأطفال نظرا لطبيعة الفلسفة ذاتها،[1] فالأرجح أن يتم السعي إلى اصطناع فلسفة عامة أو الفلسفة بالمعنى العام الذي يتسامح مع صرامتها النسقية، على ما عهدناه مع الأنساق الفلسفية الكبرى في تاريخ الفلسفة في الشرق والغرب،[2] فتكون لدينا الفلسفة أشبه بنمط معين في الحياة والنظرة إلى الوجود والسلوك مع الناس، له بضع خصائص تميزه عن غيره. وبهذا المعنى يقوم مدرّس الفلسفة بالحديث عنه عبر استقصاء أنماط الحياة والسلوك والنظرة إلى الوجود التي تميز كل تجربة حية لمن هو بسبيله إلى تعليمهم الفلسفة، أو قل التفلسف معهم وإياهم، أو يقوم هو بتقريب نمطه في الحياة والسلوك وطريقة نظرته إلى الوجود. ولعل الوسيلة التي نظنها ذات جدوى في هذا الصدد هي «الحكاية»،[3] و«الحوار» أو هما معا؛ فأما الحكاية فأمرها معلوم، إذ يتولى القيام بها بما تقتضيه من عناصر التشويق والإدهاش والإبهار بقصد حمل المستمع على الفضول وصياغة الأسئلة التي تناسب مقدرته وكفاءته، وفق الغايات التعليمية والتربوية المراد إدراكها. أما الحوار، فأمره مشاع في التداول الفلسفي، بل هو مشتل الفلسفة متى كان الفدان غير مسيّج، لا تحدّه حدود، ولا تسدّه سدود من المنع والعسف والإكراه والوصاية والحجر. ولكن الحوار في حالة الطفل «**مينون**»، لا بد له من توجيه خفيف أو قل «توليد لطيف»، من لدن **سقراط**، حتى لا يسخر من لفظ نطق به، أو يتهكم من فكرة قالها، حتى لا يحجر عليه في الخيال، ولا يكبت رغبته في حرية الحركة، انسجاما مع منطق الفلسفة ذاتها، وتآلفا مع مكان التفلسف ذاته الذي هو الآخر، من المفروض أن يكون مكانا طليقا من كل سلطة إلا سلطة الأفكار والصور والخيال. الحكاية والحوار إذن هما وسيلتا التفلسف مع الأطفال إذا كان ولا بد من وضع الفلسفة على طريق تحصيلهم العلمي والتربوي. ولكن أليس الأجدر تقليب النظر جيدا في الأمر بحيث يتم السعي إلى الحياة معهم حيث هم، حركة وخيالا وتدفقا وعفوية وبراءة وكل شيء جميل؟ عوض تدريس الفلسفة لم لا التفلسف؟ وعوض التفلسف لم لا الحياة معهم بشرطهم الوجودي؟

دلت التجربة أن الكبار يحصل لهم قدر من التشويش والارتباك حين تحصيل العلم بالفلسفة، فما القول إذن في الصغار ولم تتهيأ لهم بعد أسباب التحصيل من هذا الوجه؟

6

ليكن اللعب[4] إذن هو الاختيار الذي نسلكه معهم، ولنؤجل تدريس الفلسفة لهم؛ «نلعب» معهم عبر

(1) هذا ما انتهت إليه الأبحاث الصادرة حول هذا الموضوع، ولا سيما في إسبانيا وأمريكا اللاتينية. انظر، على سبيل الاستئناس، طائفة من المراجع التي تستشكل «تدريس الفلسفة للأطفال» في البيبليوغرافيا.

(2) انظر بعض الخلاصات حول هذا الموضوع لدى: Fernando MARTINEZ RODRIGUEZ [1996]. "Antecedentes de la filosofía para niños Francisco Giner de los Ríos y John Dewey" en Félix García Moriyón, Aprender a Pensar, *Revista Internacional de Filosofía para* Niños y Crianzas, 6, Segundo numero, pp. 49 -58

(3) يمكن الاطلاع على هذا النمط من الحكايات التالية لدى: Stella Accorinti, LIS [2004]. *Un relato de filosofía para niños, Manantial*, Buenos Aires

(4) انظر بهذا الصدد: جابر محمود الكارف. [1984]. **فلسفة اللعب التربوى ودوره في تربية أطفال ما قبل المدرسة**، جامعة المنصورة.

الحكاية وعبر الحوار، ونضمن أنّا نعيش معهم وإياهم المعاني في أول ظهورها، والحدوس في بداية تشكلها، واللّمع في فورة وهجها، واللمح في وهج فورتها. (...) فلنهيء لهم إذن أسباب لعب حر، ومثمر، ونلعب معهم، ولا نلعب عليهم، ففي النهاية، نحن أيضا لم ننل حقنا في اللعب يوم كنا صغارا، فصرنا نلعب وقت الجد، ونجد وقت الهزل، في السياسة خاصة، وفي شؤون التربية عامة، وفي شؤون الحياة أحيانا...

7

وإذا تقرر أن التفلسف باللعب أجدى من تدريس الفلسفة للأطفال، فلنصرح بهوية الطفل الذي نحب أن يكونه هذا الطفل فيما لو تفلسفنا معه وإياه باللعب عبر الحكاية والحوار؟ الجواب نقدمه على وجه الاختصار لا التطويل أملا في الخوض فيه في مناسبة قادمة؛ لأن سؤال «أي طفل نحب أن يكونه هذا الطفل فيما لو تفلسفنا معه وإياه باللعب عبر الحكاية والحوار؟» سؤال العمر كله، وسؤال التجربة الحياتية جميعها، ما امتد بالإنسان التفكير في مصير وجوده. لنكتف إذن بالقول إن «الطفل الذي نحب أن يكونه هذا الطفل فيما لو تفلسفنا معه وإياه باللعب عبر الحكاية والحوار» هو الإنسان أولا، الذي يُخلِص لشرطه الوجودي في الأخلاقية، فلا يصير نظيرا للشيئية، والمواطن ثانيا، الذي يوالي شرطه الحداثي فلا يكون قرينا للقبيلة، والحكيم ثالثا الذي يصدر عن قدرته الفكرية، فلا يكون جاهلا بحدوده، متجبرا في ضعفه... عسى إن حكم المدينة الجاهلة هذا الطفل المأمول أن يكون إنسانا ومواطنا وحكيما، كفّت عن جهلها، وإذا حكم المدينة الفاضلة، ازدادت فضيلتها.

مراجع

- **الكارف**، جابر محمود طلبة [1984]. **فلسفة اللعب التربوى ودوره فى تربية أطفال ما قبل المدرسة**، جامعة المنصورة.
- HESEN, Berrie. [2004]. *Pequeños, pero valientes: Filosofía para niños*, Barcelona.
- KOHAN, Walter (compl.). (2004). *Teoría y práctica en filosofía con niños y jóvenes: experimentar el pensar*, Ediciones Novedades Educativas, Buenos Aires.
- KOHAN, Walter O. y WASKMAN, Vera (Compiladores). [2000]. *Filosofía para niños: discusiones y propuestas, Ediciones Novedades Educativas*, Buenos Aires.
- LIS, Stella Accorinti. (2004). *Un relato de filosofía para niños, Manantial*, Buenos aires.
- LÓPEZ, Maximiliano. (2008). *Filosofía con niños y jóvenes, Noveduc Libros*, Buenos Aires.
- MARTÍNEZ RODRÍGUEZ, Fernando. (1996). "Antecedentes de la filosofía para niños: Francisco Giner de los Rios y John Dewey, en Félix García Moriyón, *Aprender a Pensar, Revista Internacional de Filosofía para Niños y Crianzas*, 6, Segundo número, pp. 49 - 58.
- SPLITTER, Laurance J., y SHARP Ann Margaret. (1996). *La otra educación: filosofía para niños y la comunidad de indagación*, Manantial, Buenos aires.
- Varios autores. (2005). *Filosofía en la escuela: La práctica de pensar en las aulas*, Laboratorio Educativo, Venezuela.